الفصل الأول

«سمات دعوة الأنبياء والرسل في القرآن الكريم»

مبحث تمهيدي

المبحث الأول: الدعوة إلى توحيد الله

المبحث الثاني: البلاغ المبين

المبحث الثالث: الصبر والحلم

المبحث الرابع: قواسم مشتركة في دعوة الرسل

مبحث تمهيدي

تمثل أحداث قصص القرآن قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات البائدة وتبين مناشطها المتنوعة، ومع أن قصص الأنبياء أبرز ما في القرآن من تاريخ - وللتاريخ أهميته في حياة الأمم العاقلة - إلا أن المحاور وزوايا الرؤية قد تعددت فيها، فبرزت إلى جانب الأنبياء شخوص قاوموا الحق وحاربوه أمثال: فرعون، الملك الذي حاج إبراهيم، أبو لهب،.. الخ، وشخوص آخرون قاموا بأدوار إيجابية في تأييدهم للأنبياء والرسل منهم: مؤمن آل فرعون، السحرة، أبو بكر، بلال.. الخ.

أما المؤيدون للرسالة عبر التاريخ فهم على الأغلب من الفقراء والمساكين والعبيد، ولا يخلو الأمر من وجود مؤيدين من الطبقات الاجتماعية العليا في صف الرسول، وضمن صحابته التي صهرتهم الدعوة الجديدة، لتخلق منهم طبقة المبدأ، والعقيدة، فهما النسب الجديد لهذه الجماعة، ولهما الولاء، دون العشيرة والأهل.

لقد عانى الأنبياء والرسل كثيراً من جفاء ذوي القربى، وعداوتهم لهم. فأحياناً كان العدو الابن، كإبن نوح ﷺ، وكانت العدو الزوج، كزوج لوط ﷺ، وكان العدو الأب، كأبي إبراهيم ﷺ، وأحياناً أخرى كان العدو العم، وابن العشيرة، ويلاحظ من هذه المفارقة بين المؤيدين، والناقمين، أن النسب ليس ضرورياً وليس هاماً في الدعوات والرسالات السماوية في صفوف المؤيدين للرسالة، التي جاءت لتخلص الإنسان من عبادة أخيه الإنسان، والدعوة إلى

المساواة والعدل بين الجميع وذلك بعبادتهم لإله واحد.

إن المستكبرين الذين عارضوا الرسل، لم يكن موقفهم نتيجة لقناعتهم بكذب وبطلان ما يدعو إليه الرسول، بل لخطر هذه الدعوة عليهم، لأنها تسعى لإزالة الاستكبار والتأله البشري، والاستعباد، وبهذا يخسرون مراكزهم، وامتيازاتهم اللاشرعية في المجتمع، لذا لم يدخروا جهداً أو وسيلة في سبيل إنهاء دعوة الرسول بأي صيغة كانت، سواء بالقتل أم بالتهجير فإذا فشلوا بالترهيب، فأنهم يطمعون أن يترك الرسول دعوته بترغيبه بالمال والجاه، لأنهم يصورون الرسول لشعوبهم المغلوبة بأنه طالب ملك ومال! وما دعوته لعبادة الله، وترك الأصنام، إلا طمعاً في رئاسة وجاه!. إلا أن رد الرسل وسلوكهم ينفي هذا الاتهام.

ونجد في قصص الأنبياء التنوع الموضوعي، من أمثلته: الأساس العقيدي في قصة إبراهيم عليه السلام، بدعوته إلى توحيد الله، وهذا الأساس مشترك في دعوات الأنبياء والرسل جميعاً، والأساس الاقتصادي في قصة شعيب مع قومه، والصناعي في قصة داود، والقضائي في قصة سليمان، والتخطيطي في قصة يوسف، والتبشير والإنذار في قصة يحيى، والأخلاقي في قصة لوط، والروحي في قصة عيسى رداً على ايغال اليهود وقتئذ في المادية وحرفية النصوص والرسوم.

ثم تأتي الجهود المتكاملة في تكوين الفرد والأسرة والمجتمع، مكملة لمسيرة التوحيد، مستفيدة من تراث النبوات السابقة، في سبيل حياة كلها عدل ومساواة، ضمن رسالة سماوية خاتمة لوحي السماء، تجلت في رسالة الإسلام، الذي جاء حجر الزاوية، وبه تم البناء الإنساني في أكمل صورة يمكن أن يحققها الإنسان على هذه الأرض.

لكن أحداث التاريخ التي ذكرت في القرآن جاءت مثالاً لا حصراً، لأن هناك تجارب بشرية، مع أنبياء، لم يرد ذكرهم في القرآن، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا

رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك..﴾.[1]

لكن الصبر في مرحلة الدعوة يبقى هامشياً، بالنسبة لضرورة الصبر والحلم كأخلاق عامة في مرحلة بناء الدولة، فقد لاقى موسى عليه السلام من عنت ومادية بني إسرائيل الشيء الكثير، فمن طلبهم للمعجزات، إلى عبادتهم للعجل، ومن اتهامهم للرسول بأنه لم يغير من حالهم شيئاً، فهم ليسوا أحسن حالاً عما كانوا عليه في مرحلة الاستعباد، إلى عدم تلبيتهم لدعوة موسى عليه السلام لدخول فلسطين، متذرعين بوجود قوم جبارين، وفي هذا غاية الذل والجبن.

قال تعالى: ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ۞ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها..﴾.[3]

لقد نفذ صبر موسى، بعد كل الجهود التي بذلها من أجل بناء جماعة ذات أخلاق تتسم بالكرامة والحرية، ويبدو أن أخلاق بني إسرائيل لازالت مطبوعة بطابع الاضطهاد والعبودية التي عاشوها في مرحلة الرق والاستعباد على يدي فرعون.

أما خلق الحلم الذي تحلى به الأنبياء والرسل جميعاً فقد تجلى في الأناة والتثبيت في الأمر، وما يلزم ذلك من ضبط للنفس وكظم للغيظ، وعفو عن السيئة، وصفح عن الخطأ.. الخ.

لقد جاءت تجارب الأنبياء والرسل في علاقتهم مع الملوك ضمن نماذج قليلة

---

[1] سورة غافر: ٧٨.

[2] سورة الأعراف: ١٢٩.

[3] سورة المائدة: ٢١-٢٢.

للحكام تبين مشاهد من الحكم، فكانت تجربة إبراهيم عليه السلام مع ملك قومه، وتجربة موسى عليه السلام مع فرعون، وهما التجربتان الأكثر وروداً في القرآن الكريم، بالنسبة لغيرهم من الأنبياء والرسل. فقد غطت علاقة موسى عليه السلام مع فرعون مساحات واسعة من النص القرآني، «فموسى أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن، لأنه ذكر (١٣٦) مرة، ثم يليه إبراهيم عليه السلام فقد ذكر (٦٩) مرة، أما نوح عليه السلام فقد ذكر (٤٣) مرة، ثم يوسف ولوط عليهما السلام فقد ذكرا (٢٧) مرة، ثم يأتي ذكر عيسى عليه السلام (٢٥) مرة، وسليمان عليه السلام يذكر (١٧) مرة، أما خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فقد ذكر (٤ مرات)».[1]

فمن الأنبياء من كان ملكاً مثل داود وسليمان عليهما السلام، ومنهم من كان ربيب ملك كموسى عليه السلام، وأكثرهم كانوا من عامة الناس وأشرفهم حسبا.

باستعراض دعوات الأنبياء في القرآن الكريم نجد أن أغلبهم لم يتجاوزوا مرحلة الدعوة، إلى مرحلة إقامة الدولة على أسس الدعوة، إلا دعوة محمد عليه الصلاة والسلام، التي كانت المثال الأوحد لانتقال الدعوة إلى إقامة الدولة في حياة الرسول، فكانت دولة العقيدة.

لكن ما هو الأسلوب الذي اتبعه الأنبياء والرسل في دعواتهم لأقوامهم؟
تميزت دعوة الأنبياء بسمات عامة، نجدها واضحة باستعراض بعض الآيات القرآنية التي تصف التجربة النبوية على مدار التاريخ الإنساني وسنرى في المباحث الآتية سمات دعوة الأنبياء.

---

(1) عبد الباقي، محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت: دار احياء التراث العربي، [د.ت])، صفحات متفرقة.

المبحث الأول

الدعوة إلى توحيد الله

لعل من أهم سمات دعوة الأنبياء، هي دعوة أقوامهم إلى توحيد الله، وعبادته، وتحطيم الأصنام، وعصيان المستكبرين المتألهين من البشر، ولهذا نشأ الصراع واشتد، بين الرسول، وبين الطغاة الظالمين، الذين هددت وزلزلت مراكزهم، وتعرضت مصالحهم للخطر. وكي يثبت الأنبياء والرسل صحة دعوتهم التوحيدية لجأوا إلى عدة براهين منها:

١- بطلان تعدد الآلهة: لقد كان الإنسان القديم يعبد الظواهر الطبيعية فيجعل الشمس إلهاً، وكذلك القمر، والنجوم، والرياح، والأنهار.. الخ. وذلك لعجزه عن تفسير حدوث هذه الظواهر التي كانت تلحق به ضرراً مادياً، وتثير فيه فزعاً نفسياً، مما جعله يعبدها، ويقدم لها القرابين البشرية، عسى أن ترحمه.

قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ۞ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ۞ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ۞ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ۞ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾.[1]

---

[1] سورة الانعام: الآيات ٧٥-٧٩.

«ففي عصر إبراهيم وجدت عبادة القمر في مدينة (اور) بلد إبراهيم وكان يطلق على القمر اسم (نانار)، كما عبدت الشمس وأطلق عليها (شماس) كما وجدت عبادة الكواكب وأشهرها كوكب الزهرة أطلق عليها (عشتار) وكوكب المريخ (مردوخ)».[1]

٢- لقد كان لتعدد الآلهة شكل آخر يتمثل في عبادة الأصنام، التي توارثها الأبناء عن الآباء، مقلدين ما وجدوا عليه آبائهم، معطلين عقولهم عن الوصول إلى عبادة الله الواحد الأحد.

قال تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ۞ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ۞ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ۞ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ۞ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ۞ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾.[2]

لعل من أهم ميزات دعوة الأنبياء والرسل لأقوامهم، كي يوحدوا الله، حضهم على إعمال العقل والفكر، وترك التقليد للآباء، وبذلك فهم يأملون من جيل الشباب استيعاب دعوتهم، أكثر مما يأملون قبول دعوتهم من قبل كبار السن، لأن هؤلاء من الصعوبة جداً أن يتراجعوا عن معتقداتهم التي أعطتهم شيئاً من الاستقرار النفسي على الرغم من عدم صوابيتها أحياناً، ودعوة الأنبياء والرسل هي من أجل المستقبل القريب والبعيد معاً.

وقوم هود ﷺ اتهموا نبيهم عندما دعاهم إلى التوحيد، بأنه مجنون أصابته بعض آلهتهم بسوء.

قال تعالى: ﴿قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما

---

(1) طبارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، [د.ت]) ص:١١٨.

(2) سورة الأنبياء: ٥١-٥٦.

نحن لك بمؤمنين ۞ إن نقول إلا اعتراك بعض إلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾.[1]

أما قوم فرعون فدعوا إلى مكافحة دعوة موسى عليه السلام المفسدة في الأرض كما قالوا، لأنها لا تقول بآلهة فرعون ولأنها ترى أن هناك إلهاً واحداً. قال تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾.[2]

إلا أن الآخر الذي يقف في وجه دعوة الرسول لا يقبل إلا بإبادة صاحب الدعوة الموحدة، وبذلك يحاول الخلاص منه، لأنه لم يستطع أن يكسب الجولة مع الرسول، بالحجة والحوار، كيف لا؟ وهذه الدعوة تهدد مكانته ومركزه الذي وصل في بعض الأحيان إلى درجة التأليه.

قال تعالى: ﴿قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ۞ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ۞ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾.[3]

ويضرب القرآن بفرعون مثالاً على ادعاء بعض الملوك الألوهية من خلال حواره مع موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قال فرعون ومارب العالمين ۞ قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين ۞ قال لمن حوله ألا تستمعون ۞ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ۞ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ۞ قال رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون ۞ قال لئن اتخذت إلها غيري

---

(1) سورة هود: ٥٣، ٥٤.

(2) سورة الأعراف: ١٢٧.

(3) سورة الأنبياء: ٦٦-٦٨.

لأجعلنك من المسجونين﴾.[1]

وفي تجربة مماثلة بين رسول وملك أدعى أنه يحيي ويميت، يتكرر ظهور الملك المتأله في التاريخ البشري.

قال تعالى: ﴿الم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين﴾.[2]

لقد استمرت دعوة التوحيد عبر التاريخ الإنساني بدءاً من آدم ﷺ حتى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ في سلسلة متصلة الحلقات، محاولة إبعاد البشر عن الشرك، وعبادة آلهة متعددة من الكواكب والأصنام والأشخاص.

ومن هنا اعتبر الإسلام كغيره من الديانات السماوية أن الشرك هو عدوه الأول والأخير، لذا جاء محارباً للشرك على كافة مستوياته، لما لهذا الاعتقاد المنحرف من خطر على إنسانية الإنسان، وعلاقته بربه، وبأفراد جنسه.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾.[3]

---

(1) سورة الشعراء: ٢٣-٢٩.

(2) سورة البقرة: ٢٥٨.

(3) سورة النساء: ١١٦.

المبحث الثاني

البلاغ المبين

لقد جرت سنة الله في خلقه أن لا يعاقب أحداً إلا بعد أن يبعث فيهم رسولاً. قال تعالى: ﴿.. وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾.[1]

وعندما يرسل الله الرسل إلى البشر يقطع على المشركين طريق العذر. فلا حجة لهم يتذرعون بها بأن الله لم يوضح لهم طريق الهدى الذي يسيرون عليه. قال تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾.[2] أما الجماعة البشرية التي لم يصل إليها البلاغ فهي غير مكلفة بتعاليم الدين، وبذلك ارتبط التكليف بالبلاغ المبين، لكن من يقوم بمهمة البلاغ المبين؟

إن الرسل هم من اختارهم الله واصطفاهم لهذه المهمة الجليلة والخطيرة، ويقع على عاتقهم عبء هذه المسؤولية، فهم مأمورون من الله سبحانه وتعالى بتبليغ رسالاته، وتوعد الرحمن من يكتم الحق، ويقصر في أداء واجبه من الرسل، على الرغم من كل الصعوبات والمحن التي تعرضوا لها، لأن طريق إبلاغ الرسالات محفوف بالمخاطر.

---

[1] سورة الاسراء: ١٥.

[2] سورة النساء: ١٦٥.

قال تعالى: ﴿... وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾.[1]

ولا يكون البلاغ مبينا، إلا إذا اتصف بوضوح المعنى، وقوة الحجة ومنطقية الفكرة. أما وضوح المعنى فيتجلى في بعث الله سبحانه وتعالى للأنبياء والرسل كل بلسان قومه حتى يفقهوا قوله، من خلال الحوار اللفظي بين الرسول وقومه، بحيث لا تكون هناك ذريعة لهم بأنهم لم يفهموا كلام الرسول المتحدث إليهم بلغة أخرى، وهذا لو تم لمنع الاتصال بين الطرفين لصعوبته ولتعذر إمكانية التواصل.

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾.[2]

مادامت مهمة الرسول محصورة في البلاغ المبين وعدم كتمان الحق، فلا لوم عليه إن لم يستجيبوا له بعد أن جعل خطابه إليهم واضحاً بيناً، ولم يكتم الحق مهما لاقى من صعوبات في سبيل نشر العقيدة بأوضح صورها، وتاريخ الأنبياء والرسل حافل بصور شتى من هذا الأسلوب الدعوي فنتائج الدعوة من حيث الكم الاجتماعي ربما كانت معدومة، أو قليلة جداً، نظراً لزمن الدعوة واستمرار الرسول بمهمة التبليغ، ومع ذلك لابد من استمرار مهمة البلاغ المبين من قبل الرسل، فيأتي بعض الأنبياء والرسل ومعهم نفر قليل ممن آمن برسالتهم ودعوتهم إلى الله.

قال تعالى: ﴿.. فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾.[3]

لم يدخر الأنبياء جهداً في بيان دعوتهم بشكل واضح ومفهوم، إلا أن أقوامهم أصروا على كفرهم حتى أن قوم نوح ﷺ، كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لايسمعوا كلام النبي الداعي إلى توحيد الله، وكانوا يوصون أبناءهم قبل موتهم بعدم إتباع نوح ﷺ الذي دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، ولمدة

---

[1] سورة العنكبوت: ١٨.

[2] سورة إبراهيم: ٤.

[3] سورة المائدة: ٩٢.

(٩٥٠) عاماً. فرغم العناد والرفض والمجابهة بالقتل لم يلجأ إلى قتالهم، وإنما لجأ إلى الصبر، حتى ولو اتفقوا على قتله، لقد استنفذ الفرص معهم تماماً، لذا كانت دعوته عليهم بالدمار.

قال تعالى: ﴿قال ربي إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ۞ فلم يزدهم دعاءي إلا فرارا ۞ وأني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ۞ ثم إني دعوتهم جهاراً ۞ ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولاتنظرون﴾.[2]

إن أكثر ما يجعل الدعوات وضوحاً، هو اعتمادها الحوار العقلي الذي يصل بالإنسان المفكر إلى الإيمان بوحدانية الله، عقلاً وتدبراً، تفكيراً ناقداً، لا تقليداً لمعتقدات الآباء، لأن ليس كل ما عليه الآباء يكون بالضرورة سليماً ومنطقياً.

وعندما يتجاوز الإنسان الأصنام الفكرية - بعض معتقدات الآباء الخاطئة على كافة المستويات - يستطيع الوصول إلى الحقيقة، وهذا التعبيد للطريق بشكل شخصي يجعل الإنسان في مأمن من انحرافات الطريق ومفاجآته وبهذا طالبنا الله في مجال العقيدة.

قال تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ۞ وكذلك ماأرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ۞ قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم

---

[1] سورة نوح: ٥-٩.

[2] سورة يونس: ٧١.

قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾.[1]

هكذا نجد في تصرف الطبقة المترفة المعادي لدعوة الأنبياء والرسل دليل على أن من يمثل هذه الطبقة لايهمه الخلاص الاجتماعي، بل همه الاستمرار والاستقرار في الوضع الراهن الذي يحقق مصالح هذه الطبقة ويحافظ على امتيازاتها.

لقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه حجة في بلاغه المبين. قال تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه....﴾.[2]

لقد بدأ إبراهيم دعوته بأبيه صانع أصنام القوم، ثم بقومه، مبيناً زيف عبادتهم، وتابع دعوته بعمل حسي عندما حطم الأصنام، متهماً كبيرهم وفق حجة عقلية غاية في الإدانة لعبادة قومه وآلهتهم التي لم تستطع الدفاع عن نفسها. وبهذا العمل - تحطيم الأصنام - انتشر خبر إبراهيم في المملكة، مما جعل المواجهة مع الملك شيئاً لابد منه. قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ۞ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ۞ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لاأحب الآفلين ۞ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكون من القوم الظالمين ۞ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون﴾.[3]

وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم

---

[1] سورة الزخرف: ٢٢-٢٤.

[2] سورة الانعام: ٨٣.

[3] سورة الانعام: ٧٤-٧٨.

الظالمين﴾.[1]

من خلال هذه الآيات نجد أن إبراهيم عليه السلام اعتمد في دعوته على التسلسل في النفي حتى توصل إلى اليقين، وذلك احتجاجاً لدينه، وتزييفاً لدين قومه أتى بالحجج على سبيل التدرج في الإلزام، لأن القوم كانوا يعبدون الأصنام ينحتونها على أسماء الكواكب والشمس والقمر ونحوها،فأراد أن يبين لهم أن الكواكب والشمس والقمر لاتصلح لأن تكون آلهة. ثم تتصاعد مستويات الحوار لتصل إلى أعلى مستوى سياسي في البلاد، وذلك مع الملك مباشرة، فكان الحوار الوارد ذكره في الآيات السالفة. ومن خلال الحوار استطاع إبراهيم عليه السلام أن يجر محاوره إلى نقطة لا عودة فيها، وقد أغلق عليه جميع الأبواب التي يمكن أن يفتحها.

فكانت حجج إبراهيم عليه السلام منطقية عقلية يسهل تصديقها، بينما كان الملك لا يملك إلا القوة والبطش بمعارضيه، مما جعله يحركهما عندما خسر في ساحة الحوار العقلي مع خصمه ابراهيم عليه السلام، فأمر بإحراقه كي يتخلص منه، ويستقر له الحكم.

قال تعالى: ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾.[2]

وتبدو أهمية البلاغ المبين في تبليغ الدعوة في ماطلبه موسى عليه السلام من الله تعالى أن يشدد أزره بأخيه هارون لأنه أفصح منه لسانا، إذ كان يعاني من اعاقة في النطق، والبلاغ المبين يحتاج إلى شرح وتوضيح وحوار من أجل بيان طبيعة الرسالة، والعقيدة الجديدة. قال تعالى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾.[3]

فالرسول مطالب باتباع أسلوب البلاغ المبين بالقول اللين والحكمة والموعظة

---

[1] سورة البقرة: ٢٥٨.

[2] سورة الأنبياء: ٦٨.

[3] سورة القصص: ٣٤.

الحسنة حتى لو كان الآخر رمز الظلم والاستبداد في التاريخ الانساني.

قال تعالى: ﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى ۞ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾.[2]

لقد أثبتت التجارب الإنسانية عبر التاريخ أن الذي يرفع شعار الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن من أجل نشر مبادئه وعقيدته تكون العاقبة في صالحه.

لم يترك الأنبياء والرسل طريقة، أو وسيلة، في سبيل أداء مهمتهم في دعوة أقوامهم إلا اتبعوها لكنهم لم يجنوا إلا التكذيب، والاعراض، والاهمال. إلا أن عاقبة الأمر كانت في صالح الرسول وجماعته. قال تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا..﴾.[3]

---

(1) سورة طه: ٤٣، ٤٤.

(2) سورة النحل: ١٢٥.

(3) سورة الانعام: ٣٤.

المبحث الثالث

الصبر والحلم

الصبر والحلم من الأخلاق الواجب توفرها بشكل عام عند كل إنسان، وبشكل خاص عند من يقومون بمهمة الدعوة من أنبياء ورسل، أو من المصلحين.

«... فالصبر قوة خلقية من قوى الارادة، تمكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب، والمشقات، والآلام، وضبطهما عن الاندفاع بعوامل الضجر، والجزع، والسأم، والملل، والعجلة، والرعونة، والغضب، والبطش، والخوف، والطمع، والأهواء، والشهوات، والغرائز..».[1]

وعلى مثل هذا ربى رسول الله محمد ﷺ أصحابه في العهد المكي، ثم في العهد المدني، في مرحلة امتلاك القوة وبناء الدولة.

بالصبر وحده يتمكن الانسان بطمأنينة وثبات أن يضع الأشياء في مواضعها، ويتصرف وفق مقاييس عقلية هادئة، بغير إندفاع أو تهور، لأن عدم الصبر يدفع إلى التسرع والعجلة، فيضع الإنسان الأشياء في غير مواضعها، ويتصرف برعونة، فيخطىء في تحديد الزمان، ويسيء طريقة التنفيذ، فينقلب صاحب الحق، أو الساعي إلى الخير، إلى مخرب مفسد، ولو أعتصم بالصبر لسلم من كل ذلك. «فالصبر سلاح قوي يمكن صاحبه من إصلاح خصمه، أو الظفر به، وإنه أعظم

---

[1] الميداني، عبد الرحمن حبنكة، الأخلاق الاسلامية (بيروت: دار القلم [د.ت]، ج٢، ص١١٨.

خلق نفسي وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا».[1]

لعل من سمات دعوة الأنبياء والرسل الهامة هي الصبر والحلم، فقد لاقوا ألواناً شتى من الصعوبات في سبيل نشر الدعوة، فقد صبر نوح على إيذاء وسخرية قومه مدة طويلة امتدت (٩٥٠) عاماً، فلم يعرف اليأس أو القنوط.

ولما لم يستجيبوا له بعد استنفاذ الفرص جميعها اضطر إلى الدعاء عليهم بالعذاب، عسى أن يطهر الله الأرض من المفسدين من أجل بناء جماعة موحدة مؤمنة جديدة.

قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ۞ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾.[2]

أما ابراهيم (عليه السلام) فقد ضرب مثلاً رائعاً في الصبر إذ تعرض من أجل دعوته التوحيدية للقذف في النار لحرقه، فصبر وأنجاه الله منها، ثم كان الطرد من الوطن ومعه زوجه وابن أخيه لوط، ثم الاستقرار بواد غير ذي زرع، ومافيه من شظف العيش، وقساوته، إلا أنه نال نتيجة صبره احتباء الله واكرامه فصار أباً للأنبياء، وجعل الله في هذا المكان القاحل بيته الحرام.

فالصبر شعار الدعاة على مر الأيام، لأنهم لاينتظرون نتيجة عملهم في القريب العاجل، وقد عبر عن ذلك رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، عندما أصابه العذاب في الطائف، فكان أمله أن يخرج من أصلاب هؤلاء المشركين من يوحد الله وعلى هذا الخلق العظيم تربى الصحابة، فمن يصبر على تحمل الأذى، يستطيع أن ينتصر على العواطف، والأهواء، فلاتتحكم في تصرفاته، لأن اتباع الحق في كل شيء هو الأولى.

---

[1] م. س. ن. ج٢، ص٢٩٥.

[2] سورة العنكبوت: ١٤، ١٥.

قال تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾.[1]

---

(1) سورة الأحقاف: ٣٥.

المبحث الرابع

القواسم المشتركة في دعوة الرسل

يمكن ملاحظة الاستنتاجات التالية من خلال استعراض بعض قصص الرسل.

١- الدعوة إلى توحيد الله، وإبطال عبادة الكواكب والأوثان والأشخاص.

٢- اتباع أسلوب البلاغ المبين في الدعوة، فلم يكن لهم أي سلوك عنف مع خصومهم.

٣- لم يكن الأنبياء والرسل يسعون إلى مال أو جاه من وراء دعوتهم وكان سعيهم إلى خلاص الانسان من عبودية أخيه الانسان، وانقاذه مما لايضر ولاينفع من الأصنام، محتسبين أجرهم عند الله.

٤- لقد كان خصوم الأنبياء والرسل بشكل عام من المترفين، أصحاب المراكز الاجتماعية العليا، الذين هددت مصالحهم بدعوة الرسل إلى المساواة بين جميع الناس، غنيهم وفقيرهم، حاكمهم ومحكومهم، فلاطبقات، ولاامتيازات في ظل عقيدة التوحيد.

٥- إن أكثر اتباع الرسل من الفقراء والمستضعفين، لأن في دعوة الرسل، خلاصاً لهم من العبودية والذل والمهانة، وهذا لاينفي وجود أفراد من الطبقات الاجتماعية العليا آمنوا بالرسل من أجل دعوة التوحيد.

٦- بقيت أغلب دعوات الرسل في مرحلة الدعوة، إلا دعوتي محمد وموسى عليهما السلام فقد انتقلت من الدعوة إلى إقامة الدولة.

٧- الصبر والحلم هما شعار الأنبياء والرسل في دعواتهم.

٨- اعتمد الأنبياء في عرض دعوتهم على الحجة، والمنطق، والحوار بينما استعمل خصومهم، القوة، والبطش، والارهاب.

٩- إن دعوة الرسل والأنبياء هي دعوة للعقل والتفكير، ورفض التقليد المتمثل بأفكار الآباء الضالة كعبادة الأصنام والكواكب التي فيها إهانة للعقل الإنساني.

١٠- لقد عانى الأنبياء والرسل الطرد من الوطن، والقتل، والسجن، والإيذاء الجسدي، فما من رسول إلا وأصابه شيء من هذه الأشياء، لأنهم بلغوا الرسالة لأقوامهم.

١١- لعل دعوة الرسل كانت متجهة نحو المستقبل أكثر من اللحظة الراهنة لإنها عنيت بخطاب الشباب، وبأمل التوحيد للأجيال القادمة.

١٢- عند استنفاذ الفرص في دعوة القوم كان الأنبياء والرسل يدعون الله فينزل بأممهم الكافرة العقاب الإلهي، لانقطاع الأمل في هذه الأقوام، ولتطهير الأرض منها، إلا محمداً فكان يدعو لهم ويعتذر عنهم قائلاً: اللهم أهد قومي فإنهم لايعلمون.